

*Kamel Tirchi | كمال طيرشى

مراجعة كتاب هوية بأربعين وجهًا لداريوش شايغان

Book review

An Identity with Forty Faces
by Dariush Shaigan

الكتاب:	هوية بأربعين وجهًا.
الكاتب:	داريوش شايغان.
المترجم:	حيدر نجف.
التقديم:	عبد الجبار الرفاعي.
الناشر:	مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، 2016.
عدد الصفحات:	200 صفحة.

* باحث في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

مقدمة



يكتسي مفهوم الهوية منزلة مركبة في الزمن الراهن، وذلك بما يطرحه من نقاشات ومواضيع تلامس حياة الفرد والجامعة تضطربهم إلى طرح تساؤلات وإشكاليات من أبرزها: من نحن؟ وماذا يعني وجودنا بالنسبة إلى الأغيار؟ وهل في إمكان الإنسان الفرد أن يعبر عن ذاته الخالصة في مقابل هذا الجمع الغير من البشر الذين تتشابك همومهم وتوجهاتهم وأفكارهم ومساعيهم مع ما يتغيه الفرد الأوحد؟ وذلك من حيث إننا لا نعيش وحدنا في هذا العالم، بل يجمعنا خيط ناظم لجوانب الحياة، ويحتم علينا، بطريقة أو بأخرى، مجابهة واقع يُمكن نعته بأنه مركب Complex Thought، أو بتعبير أدق معقد، بحسب توصيف الفيلسوف الفرنسي إدغار موران Edgar Morin؛ فهو "تسيج من الأحداث والأفعال والتفاعلات والارتدادات والتحديات والمصادفات التي تشكل عالمنا الظاهرياتي، ولكن في هذه الحالة يحمل التعقيد بشكل مقلق سمات الخلط وغير القابل للفصيل والاحتلال والغموض واللايقين"⁽¹⁾. ولعل من أبرز المفكرين المعاصرین المحسوبيين على الفكر الإسلامي المعاصر، والذين خاضوا غمار موضوع الهوية وتناولوها وأعطوها حقها من التمحص والنظر، المفكر الإيراني داريوش شایغان⁽²⁾

(3) يوضح شایغان السياق الذي أدى به إلى تأليف هذا الكتاب؛ إذ يقول: "المداخلة التي سأطّلّوها عليكم تقديرية إزاء الغرب الذي أحب، والذي أدين له بجانب كبير من تكويني الفكري، والذي علمني كيف أفكّر، كيف أطرح القضايا وكيف أسأّل الأشياء، وساكّنون تقديراً إزاء هذا الشرق الذي تضيق رغبته الجغرافية شيئاً فشيئاً، والذي إليه أنتهي، وأحسن بحضوره كأرض منسية في أعماق نفسي، ربما لا أنتهي إلى هذا ولا إلى ذاك، وربما [أكون] مشابهاً لإ XTOTY، مشredi الغرب، الذين يجوبون شوارع العالم بحثاً، والله أعلم، عن دواء لداء لا يُشفى، لست أدرى. لكنني أعرف شيئاً: أعرف أننا رغم المسافة التاريخية التي تفصل بيننا وبينكم، مسافرون جمِيعاً على ظهر مركب واحد".
يُنظر: داريوش شایغان، *أوهام الهوية*، ترجمة محمد علي مقلد (بيروت: دار الساقى، 1993)، ص 35.

(4) حاول شایغان في مؤلفه هذا تناول الكيفية التي عمد فيها الغرب بما له من قيم كونية إلى التأثير في العالم الشرقي الذي، بحسب رأيه، فقد بوصلته، سعيًا منه إلى تحديد الوجه الجديد لرؤيته تستوعب الحوار بدلاً من الصراع، والافتتاح على الهويات المختلفة بدلاً من الهوية المغلقة. للاطلاع أكثر في هذا الشأن، يُنظر: داريوش شایغان، *الهوية والوجود: العقلانية التنموية وال מורوث الديني*، ترجمة جلال بدلة (دار الساقى، 2019).

(5) استعاره الكاتب من المسرح الإيطالي؛ إذ يظهر بطل مسرحية مرتدًا ملابس مزرفة ومخيبة بأربع وأربعين قطعة مختلفةألوانها. يُنظر: المرجع نفسه، ص 27.

(6) عقيل سعيد محفوظ، "داريوش شایغان وفوضى الهوية"، الميادين، 2017/6/21، شوهد في 5/31/2022، في:
<https://bit.ly/3IvPx9y> و أوهام الهوية d'aujourd'hui . Les illusions de l'identité

(1) يُنظر: إدغار موران، *التفكير والمستقبل: مدخل إلى الفكر المركب*، ترجمة أحمد القصوار ومنير المحجوجي (الدار البيضاء: دار توبقال، 2004)، ص 17.

(2) مفكر إيراني معاصر، تلمذ على يد المستشرق الفرنسي الكبير هنري كوربين Henry Corbin (1903-1978)، نال درجة الدكتوراه من السوربون عن أطروحة بعنوان: *الهندوسية والتتصوف Hindouisme et soufisme* (1986)، من أهم كتبه: *ما الثورة الدينية؟ الحضارات التقليدية في مواجهة الحداثة، Qu'est-ce qu'une révolution religieuse?* Presses

بمنأى عن قيود تمركزه؛ فهو مغاير للجذور، وفي الآن عينه الخطيط الناظم لهذا التفاعل والتالف والتواليد، وباستطاعته أن يصنع كمًا هائلاً لامتناهياً من الشبكات. وحتى لو قدر له أن يكسر أو يخرب، ففي الإمكان أن يستمر في الحياة والنمو في جهات أخرى، ويكمنه أيضاً أن يواشج بين نفسه وبين أنظمة متباعدة وغير متجانسة، فهو لا بد منه له ولا منتهي، ويسلك طريقه دوماً؛ إذ إنه من حيث الماهية يتبدل دائماً، ومن هذا المجاز يسير المؤلف إلى نتيجة مفادها أن الهوية التقية لم يعد لها وجود موضوعي، والعلة من وراء ذلك هي انهيار العوالم المؤسسة لها (ص 28). وبذلك نجد أنه يتهمكم بأي هوية يقال عنها إنها أصيلة أو خالصة، أو بسيطة أبدية؛ ذلك أننا نعيش عالماً منوعاً ثقافياً وفكرياً، وهجين القوميات. وما دام هذا العالم متفاوت المستويات المعرفية والأطر التي تحكمها، فإن هوية المرء لا يدان لها بالظهور إلا عبر هذا الاختلاط والتلامم المنوع. ولا يبدو لنا هنا أن هذا الطرح أصيل عند المؤلف؛ إذ سبق أن عبر عنه المفكر الفلسطيني إدوارد سعيد (1935-2003) في كتاباته، فهو يعتبر أن هوية كل إنسان، مهما كان نوعه أو عرقه، خصوصاً في الأزمنة الحداثية، هي هوية هجينة، وامتدح الهجنة ولم يمتدح الأصالة؛ لأنها، بحسب فكره، أمر مزيف يورث العنف والقتل والتطرف؛ لهذا يعبر دوماً عن هويته بأنه إنسان أولًا، وفلسطيني عربي وشرقي ثانياً⁽⁹⁾.

ثانيًا: فوضى البحث عن هوية

إن عالمنا الراهن بما فيه من تغيرات ورؤى متضاربة لا تقواه فيه، وجذاميره متباعدة، بحيث

(9) يُنظر: يوسف صباح مازن، طائر القدس المهاجر: إدوارد سعيد (بيروت: دار الشرق للطباعة والنشر، 2006)، ص 567.

أولاً: هوية جذمورية (ريزومية)

يعود إطلاق الكلمة "جذمورة" Rhizome المعروفة في علم النباتات⁽⁷⁾، وإعطاؤها ملخصاً فلسفياً، إلى جيل دولوز Gilles Deleuze 1925-1995؛ إذ استعمله كثيراً في آخر أعماله التي كتبها بمشاركة زميله فيليكس غوتاري Félix Guattari 1930-1992: *السهول الألف Qu'est-ce plateau que la philosophie* (1991)، بالنظر إلى أن هذا المجاز الدولوزي يحقق إشارة كثيفة الدلالة، ويدعو إلى التخلص من نزعة البحث عن الجذور والأصول الأولى، ويشير كذلك إلى التملص من لهفة بلوغ النهايات وإحقاق الغايات. ومن سمات الجذمورة الأساسية عند دولوز الاتصال والغيرية والتعددية التي لا تمثل إلى أصل يجمعها⁽⁸⁾.

من هذه الإرهادات الدلالية الدولوزية عينها نهل المفكر الإيراني شایغان المصطلح وأرده بالهوية، معتبراً إياها بمنزلة جذور غير خالصة أو مستقلة، فهي على مقربة والتصاق بالجذور الأخرى، وهذا بسبب تعددية طبيعته التي تجعله

(7) جزء يقطع من ساق بعض النباتات، ويستخدم في إعادة إنباتها. أما المصطلح تحديداً في علم النباتات، فيستعمل كذلك للتعبير عن نوع من النباتات المتمتية إلى النبتة المعروفة بـ"اليهودي التائه" Wandering Jew أو "الملاح التائه" أو "التراديسكانتي" Tradescantia Blossfeldiana. ويمتاز هذا النبات تحديداً بغزارة الإنتاج، وهو ينبع من الأرض ويمتد على مساحة واسعة، على هيئة نباتات منفصلة ومتجاورة. ولكن في حقيقة الأمر، يكشف أن هذه النباتات المنفردة من الناحية الظاهرة هي أجزاء متراقبة تحت الأرض، تخرج من نبتة واحدة كبيرة. يُنظر: بيرت أوليبيار، "ما هو 'الجذمورة' في فكر دولوز وغوتاري؟"، ترجمة أنطونيوس نادر، معنى، 2020/3/3، شوهد في 31/5/2022، في: <https://bit.ly/3sYdY99>

(8) يُنظر: جيل دولوز: سياسات الرغبة، أحمد عبد الحليم عطية (محرر) (بيروت: دار الفارابي، 2011)، ص 39.

والافتراء؛ لأنها ستعمد إلى إذابة الفرد وتجرده من حس المسؤولية لديه، وتبعده كل البعد عن طريق الخلاص، أو تدني من مسؤوليته فتصبح جزءاً من قرار شامل ليس هو من يصوغه في النهاية، ولهذا يتبنى كيركغارد، مثلاً، عقيدة مفادها أن الحشود لا تملك الحقيقة⁽¹¹⁾.

والغريب أننا نجد أن المؤلف يميل إلى تبني الأنوار الغربية⁽¹²⁾، ويدعونا إلى النهل منها، ويظهر تحيزه الكامل إليها، حتى إنه يدعو الشرق إلى تقبل مرتکزات الأنوار الرئيسية؛ من منظور أن هذه الأنوار تجلت قيمها لكل الإنسانية (ص 29). وعلى الرغم من الطريق المادي الذي دفعه فيه الأنوار الإنسان المعاصر، وسلبته قيمه الروحية فصار خاوياً مقيداً يلهث وراء كل ما هو مادي من دون معنى، نجد أن المؤلف، في مقابل ذلك، يضع بصيص أمل في أن يعيد الغرب إلى إقليم الروح الضائع قيمه ومكانته (ص 29)، فهو يدعو، في هذا السياق، إلى التشبث بآمال الغرب وطموحاته، وفي ذلك

(11) عبد الجبار الرفاعي، الحب والإيمان عند سورن كيركغورد (بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر؛ بغداد: مركز دراسات فلسفية الدين، 2016)، ص 60.

(12) نعتقد أن شایغان لم يحقق جيداً مفهوم التنویر أو الأنوار بحملتها الفلسفية الأوروبية (الألمانية منها والفرنسية)، أو على درجة أقل تلك التي يمكن فهمها من الطرح الكانتي في مقاله الشهير "ماذا يعني التنویر؟" الذي نجده مغايراً تماماً للفهم الشايغاني. فالتنویر عند كانت هو "هو انعاتق المرء من حالة العجز الذاتي. والعجز هو عدم قدرة المرء على استخدام فيهما الخاص دون توجيه الآخر. إذا لم يكن سبب هذه الحالة، من عدم النضج الذاتي، هو نقص في ملكة الفهم، فهو بالأحرى، نقص في الشجاعة والإقدام لاستخدامها دون إرشاد الآخر. لذلك، يكون شعار التنویر إذن: تحل بالشجاعة لاستخدام عقلك بنفسك". ينظر: إيمانويل كانت، "جابة عن سؤال: ما هو التنویر؟"، ترجمة عبد الله المشوش، حكمة، 2015/6/19، شوهد في 2022/2/23، في:

<https://bit.ly/3wXHqyb>

ينمو البشر في فضاءات متعددة مفتوحة، ويعيشون أنماطاً حياتية مختلفة، وهي التي ستُحدد فيما بعد تبلور التصورات والمفاهيم. فمثلاً، يواشج نمط التعامل بالمكان الجغرافي المعين العلاقة بيننا وبين الهويات الأخرى على تنوعها، من حيث إن الانتقال من تقارب إلى آخر يدخل في حيز الممكن، وكلنا - بوصفنا بشراً - بمنزلة قطع من زمرة أربعين قطعة تُخاطب على نحو مستمر و دائم، ويجري ذلك على مسلك أفقى، فقد غدونا عبارة عن جذورات مبثوثة عرضة لتحولات تاريخية وإبستيمية شتى؛ ولهذا، لا بد لنا من استبدال مبدأ عدم التناقض بمبدأ آخر هو اجتماع النقائض، لكي يقتدر المرء على أن يتعالق بالأغيار الكثيرين، وهو عينه سبيل الخلاص وفق منظور المؤلف⁽¹⁰⁾.

ما يمكن أن يؤخذ به، في هذه الرؤية، هو أنها تطمس تفرد الهوية الفردية التي ناضلت من أجلها التزعنة الوجودية المعاصرة Existentialism، والتي مجده الفرد المنفرد بهويته البعيدة كل البعد عن التعالق الأغاري، بداية من سورن كيركغارد Søren Kierkegaard (1855-1813)، مروراً بجون بول سارتر Jean-Paul Sartre (1905-1980)، وغابريال مارسيل Gabriel Marcel (1893-1973)، وغيرهم، ثم إن الانصهار في بوتقة الجماعة البشرية يسحق الذات، مهمما كان للجماعة من صوت وتمظهر ديني، أو قانوني، أو سوسيولوجي، أو فكري. سواء كانت هذه الجماعة مؤلفة من رجال دين، أغنياء أو فقراء، أو من غيرهم، فإنها في صميمها ينالها الكذب

(10) خديجة زيتلي، "داريوش شایغان ومسألة الهوية في الحضارة العالمية المعاصرة: قراءة في كتابه 'هوية بأربعين وجهًا'", الكوة، 2019/3/4، شوهد في 2022/5/31، في: <https://bit.ly/3BGUIXc>

المتهكمين بالمركزية الأوروبية، والذين اعتبروا أنها هي السر المسبب لكل الويالات والآمسي التي شملت البشرية، وفي مقابل ذلك لا يتفطنون إلى أنه لو لا هذه الحضارة العالمية التي ولدت في أوروبا على وجه التحديد، لما اقتدر أمثال هؤلاء المتقددين الناقمين، على إيجاد الأدوات النظرية لنقد المركزية الأوروبية (ص 43).

ثالثاً: فكرة صدام الحضارات لهم تنتغتون والتعددية الثقافية

ينفتح المؤلف على أطروحة المفكر الأميركي صامويل هنتنغتون Samuel Huntington الذي يرى في كتابه *صراع الحضارات: إعادة صنع النظام العالمي* (*The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order*) (1996) أنّ "الثقافة والهويات الثقافية هي على المستوى العام هويات حضارية، هي التي تشكل أنماط التماسك والتفسخ والصراع في عالم ما بعد الحرب الباردة"⁽¹⁶⁾، والأجزاء الخمسة من الكتاب تفصل النتائج الطبيعية لهذا الافتراض الرئيس وينتقد المؤلف أطروحة هنتنغتون معتبراً أن هناك تعقيدات كثيرة وضع لبناتها هنتنغتون نفسه بخصوص مفهومه للحضارة، متهكمًا بنظريته المرتبطة بمناطق الصراع التي يعتقد المؤلف أنها ستكون بين العالم الغربي والعالم الإسلامي، وأن التحالف الكونفوشيوسي - الإسلامي الجديد هو برديم تحالفات بين دول غير غربية، تتأى بنفسها عن الانخراط في المعسكر الغربي؛ لذلك تعمد إلى لملمة قواها وتستعرضها إزاء القوى الغربية (ص 52). ويرى المؤلف، أيضًا،

نوع من المداهنة والليونة في التعامل مع الأنوار الغربية⁽¹³⁾.

هذه الأنوار أصابها الكسوف والأفول، فعلى الرغم من التطور الكبير في عالم التقنية ووسائل التواصل الاجتماعي وغيرها، أصبح الإنسان بالوهن، وسيطرت عليه العبودية الطوعية *Voluntary Slavery*⁽¹⁴⁾؛ إذ إنه كلما سهلت الحياة باعتماد التقنية الأكثر سرعة، أدى ذلك إلى التباعد بين البشر وهدد المرمى الجوهري الذي انبني على أساسه التدوير؛ ذلك لأنّ من قواعده احترام الذات البشرية والإعلاء من شأنها. ولهذا فأي تقدّم وتطور في المعرفة البشرية، سيسلّك منحى أداتياً، وبمقدار ما يجد المرء فيه من حرية، تتقلص سعادته واستقلاله الفردي وتخيله وحكمه المستقل⁽¹⁵⁾. إلا أن هذه النظرة حزت في نفس المؤلف وجعلته يهاجم أنصار التعددية الثقافية

(13) التناقض لا يتوقف هنا فقط، بل نجد أنه يصف حضارات الشرق بأنها في حالة من الاحتضار أيضًا، ولكنه في المقابل يستلهم منها، ويوظفها في ما يكتبه، معتبراً أن ما أغدق به علينا من ميراث روحي، بلور رؤيتنا إلى العالم في الأزمة الراهنة! وتعقيبياً على ذلك يؤكد عبد الجبار الرفاعي في مقدمته لكتاب شنايغان قائلاً: "لا يكفي عن توظيف شيء من ميراثها المعنوي [...] بعد خلطها بمقولات الفلسفية الغربية [...]. فهو مثلاً يخلط مقولات السهروردي المقتول بمقولات مارتن هайдغر، تبعاً لهنري كورين". يُنظر مقدمة عبد الجبار الرفاعي، في: شنايغان، هوية بأربعين وجهًا، ص 31.

(14) هذا التوصيف أورده وفضل فيه الكاتب الفرنسي إتيان دو لا بوسي *La Boétie* (1563–1530)؛ إذ وضح فيه أن مقاومة البؤس والقهر اللذين يتعرض لهما الفرد، لا تمر عبر العنف والقتل، لأن عبودية الأفراد والجماعات هي عبودية طوعية، فهم يذبحون أنفسهم بأنفسهم، وهو الذين يخوضون بصفتهم كائنات والإهانة إنما هم في الحقيقة يشوهون طبيعتهم بصفتهم كائنات بشريّة مفطورة على الحرية والانعتاق من أغلال العبودية. للاطلاع أكثر، ينظر: إتيان دو لا بوسي، مقالة *العبودية الطوعية*، ترجمة عبد كاسوحة (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2008).

(15) يُنظر: كمال بومنير، *النظريّة التقدّمية لمدرسة فرانكفورت: من ماكس هوركهايم إلى أكسل هونيث* (الجزائر: منشورات الاختلاف، 2010)، ص 30.

(16) صامويل هنتنغتون، *صدام الحضارات: إعادة صنع النظام العالمي*، ترجمة طلتع الشايب، تقديم صالح قنصوه، ط 3 (بغداد: سطور الجديدة، 1999)، ص 37.

ويلزم أن نؤمن إيمانًا راسخًا بأنه لا وجود لثقافات مستقلة، وإنما نحن جميعًا حيال أسواق وجود داخل إطار كلياني هو الحداثة، وإن شائج القربى بين أسواق الوجود برمتها على اختلاف واختلاف مراميها ومستوياتها الإبستيمولوجية تأتي على هيئة حوار الفرد مع ذاته ومع الأغيار؛ لا في صورة عمل ثوري يهدف إلى قلب السلطة، بل لا بد أن نقنع أيضًا بأن الحوار ممكן على مستوى الأفقى، وليس على المستوى العمودى⁽¹⁸⁾.

رابعاً: هوية بأربعين وجهاً

يؤمن المؤلف بأن معاناة البشرية الهوياتية في الأزمنة الراهنة سببها الجوهرى في كون الهوية لم تصبح عبارة عن مجموعة رتبية من القيم الثابتة القطعية المطلقة، بل هي تمدد يتسع رويدًا رويدًا ليشمل الكوكب الأرضي برمته؛ وهكذا، لا مجال ل الهوية نقدية رتبية، كالهوية المنبجسة من شعب بعينه، أو ديانة بعينها، المُلْغِيَّة لحضور الأغيار، لأنَّه ليس من الأصوب اختزال شخصيتنا في نموذج فريد خاوٍ؛ فواقعنا مرَكَّب ومغاير تماماً، تمتزج فيه القوميات والأفكار والهجنة، والفضاءات التي تصنعتها متعددة ولا نقاوة تميّزها، لأن جذاميرنا لم تعد واحدة، ولم نعد كذلك نعيش وحدنا في هذه الأرض؛ فجذورنا متصلة بالأغيار وثقافاتهم وأفكارهم المتباينة، هذه الحال تجعلنا، وفق المؤلف، عبارة عن حلزون يحمل بيته على ظهره، ونمط حياتنا يحدد مجال رؤيتنا، إننا بسبب من تواشجاتنا التي نخلقها مع الأطر والثقافات الأخرى نقتدر على التموضع في المكان بdrop مختلفة، ولم يعد الكائن البشري في العصر الراهن متحررًا من هذه التمازجات التي

(18) يُنظر: حيدر جواد السهلاوي، "مفهوم الهوية عند داريوش شایغان"، صحيفة المثقف، شوهد في 2/27/2022. في:
<https://bit.ly/3t1SqJy>

أن تاريخ الحضارات في الشرق في الأزمنة الراهنة هو تاريخ عالمي، وأن المراكز العظمى للإشعاع الروحي لم تعد موجودة حالياً؛ إذ إن الموجود هو مراكز اقتصادية كبرى فقط، ثم إن أي باحث يسعى للحديث عن الحضارات غير الغربية على شاكلة هتنتغتون، يجب أن يموضعها في نسبي الحداثة الكبير، والمفهوم الذي يحدده هتنتغتون على خلاف ما هو في عصر تحكمه العولمة، هذا التيار الذي يقاوم ولا يقبل البتة النكوص إلى الوراء (54).

أما حينما نستشرف مفهوم التنوع والتعدد الثقافي عند المؤلف، فإننا نجد أنه لا يتجلّى فقط في كتابه عن هوية بأربعين وجهاً، بل في كل مؤلفاته التي يُموضع فيها الهوية والتعددية الثقافية، بوصف ذلك مرحلة لإنفاق دروب الحوار، بغية المروق من التحديات الراديكالية الراهنة، وبوصفه ضرباً من التأصيل وطريق لحماية هذا التنوع والتعدد الثقافي أيضاً؛ ليس على منحى الدولة الواحدة فقط، وإنما كذلك على المنحى العالمي للثقافتين الشرقية والغربية، ثم إنه يجب أن توسيع دائرة إننا الحضارية ونبحث من خلالها عن التنوع الثقافي المتراع بالغنى، وأي حماية لهذا التنوع الثقافي التي تمتاز به الحضارات الكلاسيكية العتيقة في مواظيبتها على كل مظاهر العصرنة لا تتأتى لها المُكنته إلا بالتفكير في موضوع الهوية وإخراجها من توقعها السلبي إلى الحضورية الفعلية وتجمسيز الرابط المبادل⁽¹⁷⁾، كما أن الحوار لن يكتب له النجاح إلا من خلال العزوف تماماً عن النبرات الحادة في الخطاب التي تكون في الغالب معادية، وتحمل أحقاداً دفينة، ويتمخص عنها التطرف والإرهاب،

(17) يُنظر: فرحات عماري، "سياسة التعدد الثقافي من التفكير في الهوية إلى الاعتراف"، مجلة الأكاديمية للبحوث في العلوم الاجتماعية، مج 1، العدد 1 (كانون الأول / ديسمبر 2019)، ص 93-92.

(الخضوع للتقنية)، والمجازية (صناعة المجاز). ويقصد باللاسحرية إقصاء كل الصور بمرمزياتها وإحالاتها، وإرجاعها إلى أعماق الروح البشرية، وتفریغ كل الرموز الكونية التي كانت تُعدّ على هذا الكون ملامحه السحرية والجلالية؛ إذ تعمد هذه اللاسحرية، وفق تعبيره، إلى تحويل السماء التي ترعرع بكل صنوف الخيالات والصور إلى فضاء مفرغ هندسي نمطي الأجزاء، ويتباين هذا السحر الجديد عن السحر العتيق بشدة، ويتجسد في هيئات "الأرواحية التقنية" (ص 137).

تتوالى ظواهر الثلاث التي استحضرها المؤلف في كونها تنسف الأنساق الأنطولوجية القديمة، ويعجلي لنا هذا النسف حقيقةً أخرى هي نتاج منطقيته في الآن عينه؛ أي التفاعل الكلي المتقابل على منحي واسع جدًا. ويتصاعد التواضع والترابط المتقابل في كل أبعاد الواقع. فمثلاً، تكتسب العلاقات البنية في الشق الثقافي نموجًا جذموريًا، فينبخش منها تمظهر مرقع تتمازج فيه كل الثقافات بعضها مع بعض بطريقة موزاييكية، خالقة بذلك فيما بينها من الفراغات فضاءات تمازج ثقافي. أما على المستوى المعرفي، فتنتعق هذه الظاهرة أمام وجود كم هائل من التفسيرات المتباعدة والمتنوعة؛ ومن ثم يصبح عالمنا اليوم في مواجهة مأزق معقدة ومفتوحة على مصراعيها. ومع عویص التفكير والتدبر في عالمنا، واكتناه حقيقته، والمرامي الممكنة لإيجاد حلول له، فإن المؤلف هنا يربط عالم اليوم بما يعكسه حال الغرب وتأثيره الهائل في كل شيء، محملاً الغرب نفسه المشكلة الأولى والأخيرة، معتبراً أنه هو الوحيد الذي يبيده زمام الأمور ويبيده كل الحلول؛ فهو صانع السُّم وهو الذي لدِيه الترائق لمعالجته، ومتَّبِعاً أن النور، في أي منحي من حياتنا، إذا تبصرنا، لن يأتي إلا من الغرب. ولهذا

يمكن نعتها بأنها أصبحت اليوم طريقة وجودنا في العالم (ص 122). ويوضح المؤلف المغربي من وراء الأربعين قطعة بأنه الفضاءات المختلفة المعقدة التي تشكّل كينونتنا تاريخياً وإستيمياً، وهي ليست في شكل واحد؛ فكل إقليم يجسد مستوى من مستويات الإدراك، ثم إن المعرف الدارجة المؤسسة على العلوم الاجتماعية الحديثة ما عادت تكفي في هذا العالم الملآن الطيف، فهي أعجز عن أن تحل عقد الأذهان الملتبسة (ص 126-127).

وفي حديث المؤلف عن موضوع الهوية في العالم العربي والإسلامي، يحضر الدين بمنزلته المركزية بطبيعة الحال، لكنه يرى أنه لا يُمثل جوهر الهوية في هذا العالم، لأنَّه يتداخل فيه القومي مع اللغوي والسوسيولوجي والحداثي، ويضرُّب مثلاً دالاً على ذلك من خلال بلده إيران؛ إذ يقول إن استحضار التاريخ من لدن أهل إيران ما هو إلا اعزاءات لهم وحسرات على إخفاقاتهم الراهنة، وهم "باستعادة تلك الحقب يحيون بسالة أبطالهم ويمجدونهم، فالماضي هو كل شيء بالنسبة لبلدان عريقة كإيران [...]. وكأنما لاأمل لنا إطلاقاً سوى ذلك الماضي العتيد الذي ذاب وجودنا في سطوطه وغرق في أحلامه الوردية، والهوية الإسلامية ذات ماضٍ أقرب بكثير من الماضي القومي الذي يرجع إلى آلاف السنين، إنما هوية لا يتجاوز عمرها الألف وأربعين سنة" (ص 131).

خامساً: الأنطولوجيا الهشة: أضداد متلاصبة في عصر العولمة

يجمل المؤلف في كتابه الاقترانات التي تحكم عالمنا اليوم بخصبه وتغييراته المثيرة، والتي ترتبط بثلاث ظواهر أساسية، هي: اللاسحرية، والتقنية

ثم إنه يحثنا على أن نوجه فكرنا نحو وظيفة نقد مزدوجة؛ وذلك بالكشف عن الأدلجة المزدوجة التي تتناول الدين والحداثة معًا، من حيث إنه المأزق الحقيقى الذى تجاهله الحضارات العتيبة الكبرى اليوم⁽²⁰⁾.

نجد أنه يؤكد أن "موضع الانحطاط هذا ليس سوى الغرب ومنبت الحداثة. ومن هذا الموضوع تحديدًا يجب أن تحدث الرجعة [...]" الرجعة التي ستكون معنوية بلا ريب، فكما يقول فاغنر في بارسينال: لا مرهم للجرح سوى السلاح الذي أوجده. الجرح والسلاح بيد الغرب اليوم، وعليه هو استخدامها" (ص 144).

خاتمة: هل أصبح عالمنا شبّيئاً؟

استحكم في عالمنا اليوم نزوعه إلى تقدس كل ما هو خوارقي؛ إذ يثير فضول الإنسان المعاصر كل ما له علاقة بالمجاز والغموض وقراءة الطالع، إضافة إلى أنه أصبح يبحث كثيراً عن التفسيرات التي تعطيه لمحنة عما سيحدث له في المستقبل، وقد سايرت هذه الشغفية الكثير من وسائل الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي، والروايات والأفلام التي تُثبت على منصة "نتفليكس" Netflix وغيرها؛ إذ تصور عالماً مليئاً بالخيال والرموز والتعقيد الذي يواجه الإنسان المعاصر، أو ما سيواجهه في مقبل الأيام.

يُعلق شايغان على حال ما يعيشه العالم اليوم، والتزعّة الشبحية التي أصبحت تربكه، ويرجعها أساساً إلى أ Fowler العقل⁽²¹⁾، هذا العقل الذي

(20) يُنظر: نادر كاظم، طبائع الاستسلام: قراءة في أمراض الحالة البحرينية (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2007)، ص 243.

(21) اعتمد الفيلسوف الألماني ماكس هوركمeyer هذا المصطلح وخصص له كتاباً عنوانه كسوف العقل Eclipse of Reason، ونشره سنة 1947، حيث تهكم في هذا الكتاب بوعود التنوير والتغنى بالعقل وفترته على تحرير الإنسان من الخراقة والرؤيا السحرية في تفسيره للكون، إلا أن هذا العقل كسف، ومن الأصول أن ننكر مكانته، لأن ما جنبناه من ويلات من جراء استخدامه المغلوب وتباعاته تجعلنا نفضل النأي عن استحضاره.

ووهنا تتجلى تبعية المؤلف الصارخة للغرب، حتى إنه يحاول أن يعطي تفسيرات لأي انتكاسات في ثقافتنا ومعارفنا ويلحقها بالغرب؛ كونه هو صانعها ومهندسها الأعظم. والغريب أيضاً أنه يلحق قدرنا بقدر العالم الغربي، وكأنه المصير الأوحد والنهائي الذي سيؤول إليه مستقبلنا. صحيح أننا نعيش جذباً كبيراً ومغرياً من الغرب، لكن لا يمكن القطع مع المؤلف أننا سنبقى مرهونين به، محبوسين في عالمه، بحكم أن حضارة الشرق الكلاسيكية العتيبة لا يدان لها بالتملص من هذا الجذب الكبير الذي خلقه الغرب بوصفه حضارة عالمية⁽¹⁹⁾.

وادهى من ذلك أيضاً أن نجد المؤلف يرجع وضعيتنا الحالية بوصفنا عالماً شرقياً إلى تغريب العالم الذي لا رجعة عنه، والذي يسبب قطيعة تشمل البشرية جماء، وتتجلى في أكثر صورها في الحالة العصابية والفصامية لإنسان العصر في هذه الحضارات التقليدية الكبرى، وهذا الشخص الذي يضعه المفكر الإيراني يؤسسه على قاعدة منهج مقارن، يكشف من خلاله عن التجانس الذي يجمع الحضارات التقليدية الكبرى (الإسلامية والهندية والصينية) في كل واحدٍ نعته المؤلف بـ"التجمع الروحي الواحد".

(19) يُنظر: نادر كاظم، "داريوش شايغان: هوية بأربعين وجهاً"، مجلة الفيصل، العدد 501-502 (آب/أغسطس 2018)، ص 131.

الجزمية، يتجلّى الدين اليوم على شكل سحر وشعوذة وربما خرافات" (ص 156).

ورغم ما قدمه المؤلف من خلال منافحته عن هوية تمازجية بين ثقافات وأفكار مختلفة ومتباعدة، من حيث إن هويتنا بوصفنا أفراداً وجماعات لا يدان لها بأن تكون وقائع طبيعية تختص بنا، ولكنها أشياء نحن الذين نشكّلها تخيلاتٍ في الواقع، ومن حيث إن الهوية لا يمكن أن تتوقف عند مستوى التقليي البيئي فحسب، بل تصل إلى مستوى التمثيل الوجودي للكون أيضاً، فإنّ ما نستغربه منه تحديداً هو تأكيده على تأثير الغرب في قيمتنا الكونية، نحن البشر المتمتّعين إلى حضارة الشرق، مصوّراً إيانا على أننا كائنات تائهة ضائعة ضلت طريقها، وأن السبيل الأوحد للنجاة وبلوغ النموذج الأسّمى للتحضر، يكون بالالتحاق بالحضارة الغربية، بحجّة أننا كُلُّ واحدٍ وهويات ممتزجة. لكن هذه الامتزاجية، شيئاً أمّ شيئاً، هي وفق منطق الغرب في نهاية الأمر، ومهما حاول أن يبيّن عكس ذلك فسيقى يُفكّر بأساليب الغربيّين وطريقة فهمّهم للحضارة ومفهوم التقدّم وتتصورهم عن الهوية، ويبقى السؤال المطروح عندنا هو: هل يعترف الغرب بالموروثات الدينية التي يحملها في الشرق كما نعترف نحن بالعقلانية التنويرية في صورتها الغربية؟

ضاع في عالم التقنية⁽²²⁾، وأصبح خادماً مطيناً للأداتية. وفي مقابل ذلك، نجد أنّ هناك نزعات روحانية تسير جنباً إلى جنب مع التطور الهائل للتقنية، أبهرت الإنسان وجعلته لا يثق بعقله، ويزداد افتتاحاً لعالم الخرافة وإيماناً بها. ويشرح المؤلف المتنزع الجديد قائلاً: "هذه المتطلبات الهمامية المشتقة، وهذا العالم المجازي الخاص بالنزعات والطموحات، والظماماً إلى استدعاء المثل القديمة، والهروب من المساحات الأخرى، خلقت بمجملها عالماً وهميّاً، وفضاءات تضيّج بأشباح تبحث بكلّ هيستيريا عن مكان للحلول، وحينما لا تجد مثل هذا المكان ستبقى أشباحاً سائبة تغمّس روؤوسنا في مستنقع الحيرة والضياع، سمة الإرباك والفوضى في عصرنا هي بالضبط ما يمكن نعته بفقدان الإحداثيات، فبسبب ضمور الطابع الطقوسي والتشريفاتي للأساطير والعقائد

(22) من الواضح تأثر شياغان بما ذهب إليه الرعيل الأول للنظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت؛ فيحسب كل من ماكس هوركهايم وثيودور أدورنونو، أصبح العقل أداتياً، وأصبحت معه العلاقات بين البشر وعلاقة المرأة مع ذاته مضطربة، ونجح العقل الأداتي في تشبيه الإنسان واستخدامه من لدن المؤسسات الاقتصادية والسياسية وأجهزتها الأيديولوجية القائمة على تكريس المصلحة والهيمنة بصورها المختلفة، وانقلب التنوير إلى التنيّض، وذلك أن حركة التنوير حتى إن ادعت تحرير الكائن البشري من غل العبودية والأسطورة وأدخلت العقل بوصفه أداة حاسمة في التعامل مع الأشياء وال العلاقات والطبيعة والتاريخ، فإنها - في نهاية المطاف - استسلمت لأساطير من لون جديد. يُنظر: بومنير، ص 15-16.

References

- بومنير، كمال. النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت: من ماكس هوركهايم إلى أكسل هونيث. الجزائر: مشورات الاختلاف، 2010.
- دو لا بويسى، إيتيان. مقالة العبودية الطوعية. ترجمة عبود كاسوحة. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. 2008.
- الرافعى، عبد الجبار. الحب والإيمان عند سورن كيرككورد. بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر؛ بغداد: مركز دراسات فلسفة الدين، 2016.

المراجع

- شایغان، داریوش. **الهوية والوجود: العقلانية التنويرية والموروث الديني** (بيروت: دار الساقی، 2019).
- _____ . **أوهام الهوية**. ترجمة محمد علي مقلد. بيروت: دار الساقی، 1993.
- عماري، فرحات. "سياسة التعدد الثقافي من التفكير في الهوية إلى الاعتراف". **مجلة الأكاديمية للبحوث في العلوم الاجتماعية**. مج 1، العدد 1 (كانون الأول / ديسمبر 2019).
- كاظم، نادر. **طبائع الاستملاك: قراءة في أمراض الحالة البحرينية**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2007.
- _____ . "داريوش شایغان: هوية بأربعين وجهًا". **مجلة الفيصل**. العدد 501-502 (آب / أغسطس 2018).
- کانط، إمانويل. "إجابة عن سؤال: ما هو التنوير؟". ترجمة عبد الله المشوح. حکمة. 2015/6/19، في:
<https://bit.ly/3wXHqyb>
- مازن، يوسف صباغ. **طائر القدس المهاجر: إدوارد سعيد**. بيروت: دار الشرق للطباعة والنشر، 2006.
- موران، إدغار. **الفكر والمستقبل: مدخل إلى الفكر المركب**. ترجمة أحمد القصوار ومنير الحجوji. الدار البيضاء: دار توبيقال، 2004.
- هنتنجهتون، صامویل. **صدام الحضارات: إعادة صنع النظام العالمي**. ترجمة طلعت الشايب. تقديم صالح قصوه. ط 3. بغداد: سطور الجديدة، 1999.